أحمد حسن الزيات .. عميد النثر الفني في العصر الحديث

الدكتور / محمود محمد علي

أستاذ الفلسفة/ جامعة أسيوط

أحمد حسن الزيات
.. عميد النثر الفني
في العصر الحديث

أحمد حسن الزيات .. عميد النثر الفني في العصر الحديث

في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري شهدت مصر نهضة أدبية وفكرية، شملت كل فنون الأدب وألوان الفكر، وازدانت الحياة بكوكبة من فحول الشعراء، وكبار الكُتّاب، وأئمة اللغة والبيان، وأساطين العلم والفكر، وقادة الرأي والتوجيه، ودعاة التربية والإصلاح، وجهابذة الفقه والقانون، ونجوم الصحافة والأدب، واجتمع لها من هؤلاء الأعلام ما لم يجتمع لها في قرون طويلة، منذ

أن أصبحت مصر إسلامية الوجه، عربية اللسان.

وكان أحمد حسن الزيات– " ١٨٨٥– ١٩٦٨" واحدًا من هذه الكوكبة العظيمة التي تبوأت مكان الصدارة في تاريخ الثقافة العربية ؛ حيث وَلَجَ إلى هذه الكوكبة ببيانه الصافي، وأسلوبه الرائق، ولغته السمحة، وبإصداره مجلة "الرسالة" ذات الأثر العظيم في الثقافية العربية صار يمثل عملاق من عمالقة الأدب المعاصرين، وصاحب مدرسة نهل الأدباء والمتأديون من معينها بعد منتصف القرن الحالي.

لقد سطر العديد من المقالات في الدعوة إلى التحرير من قيود الماضي، والاهتمام بدراسة الأدب بطريقة منهجية منظمة، دون إهدار تراثنا الإسلامي العظيم، له مقالات ممتعة في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع، عامرة بألوان الفكر النير، والرأي السديد، تفيض بإحساس دافق، وشعور متألق، وحماس هادر فكان بحق بمثل أحد كبار رجال النهضة الثقافية في مصر والعالم العربي، رابع الثلاثة الكبار: مصطفى صادق الرافعي، وطه حسين، والعقاد.

لكن الأديب العراقي جمال الدين الألوسي يذهب أبعد من ذلك فيقدمه على هؤلاء الثلاثة،

إذ يقول: «الزيات أحد الكُتاب القلائل، الذين يكتبون لغتهم عن علم، ويفهمون ويعالجون أدبها عن فهم وإدراك، أمثال العقاد، والرافعي، وطه حسين، ولكن الزيات أقوى الثلاثة أسلوبا، وأوضحهم بيانا، وأوجزهم مقالة، وأنقاهم لفظا. يُهَنْدِسُ العبارة قبل أن يُسطِرها على الورق، ويصطفى الكلمة قبل أن يرصفها مع لِداتها، يُعنى بالازدواج، ويُغرم بالتجنيس والطِّباق. وعند الكثرة الكاثرة هو أكتب كُتاب المقالة الأدبية المثالية، وأشد الكُتاب التزاما بالأساليب العربية المُشرقة، وأكثرهم عنايةً باللفظ الأنيق للمعنى الرفيع، يُعطى الكلمة حقها، ويُقدِرها حق قدرها».

ويميل إلى الرأي السابق كثيرا صلاح حسن رشيد في كتابه "مجمعيات أحمد حسن الزيات" فيقول :"إنه كان عميداً للأساليب العربية في القرن العشرين، فهو مدرسة عريقة في البلاغة الجديدة، والتفنُّن الصياغى، والأداء المُحكم، والتجديد في الألفاظ والمعاني، ومُصاولة فحول العربية، وبلغائها أمثال عبد الحميد الكاتب، والجاحظ، وابن العميد، وأبى حيان التوحيدي، وغيرهم من أعلام الكتابة العربية، حتى أصبح ركناً ركيناً من أعمدة الأدب الحديث".

ولد الزيات في قرية كفر دميرة القديم التابعة لمركز طلخا بمحافظة الدقهلية بمصر في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٠٣ هـ/٢ إبريل ١٨٨٥ م، ونشأ في أسرة متوسطة الحال، تعمل بالزراعة. تلقى تعليمه في كتاب القرية، فحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ثم أرسل إلى أحد العلماء في القرية المجاورة ليتعلم القراءات السبع وأجادها في سنة واحدة.

ثم التحق الزيات بالجامع الأزهر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وظل فيه عشر سنوات، وتلقى في أثنائها علوم الدين واللغة العربية، إلا أنه كان يفضل الأدب فتعلق

بدروس الشيخ سيد علي المرصفي الذي كان يدرس الأدب في الأزهر، كما حضر شرح المعلقات للشيخ محمد محمود الشنقيطي، أحد أعلام اللغة العربية البارزين آنذاك.

واتصل بطه حسين، ومحمود حسن الزناتي، وكانوا يقضون أوقاتا طويلة في دار الكتب المصرية لمطالعة عيون الأدب العربي، ودواوين فحول الشعراء. ولكن لم يكمل الزيات دراسته بالأزهر وإنما التحق بالجامعة الأهلية فكان يدرس بها مساء ويعمل صباحا بالتدريس في المدارس الأهلية. والتقى الزيات في عمله بالعديد من رجال الفكر والأدب في عصر

النهضة، مثل: العقاد، والمازني، وأحمد زكي، ومحمد فريد أبو حديد.

ولقد اختارته الجامعة الأمريكية بالقاهرة رئيسا للقسم العربي فيها في عام ١٩٢٢ م، وفي أثناء ذلك التحق بكلية الحقوق الفرنسية، وكانت الدراسة بها ليلاً، ومدتها ثلاث سنوات، أمضى منها سنتين في مصر، وقضى الثالثة في فرنسا؛ حيث حصل على ليسانس الحقوق من جامعة باريس في سنة ١٩٢٥ م. في عام ١٩٢٩ م اختير أستاذا في دار المعلمين في بغداد، فترك العمل في الجامعة الأمريكية وانتقل إلى هناك.

ويعتبر الزيات ممن لهم الفضل في التأليف عن تاريخ الأدب العربي في وقت لم يكن التأليف في هذا المجال قد نضج، إذ أخرج كتابه " تاريخ الأدب العربي " سنة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦ م. وصدر سنة (١٣٣٥ هـ= ١٩١٦م)، ثم أصدر "في أصول الأدب" سنة (١٣٥٢هـ= ١٩٣٤م)، و"دفاع عن البلاغة" سنة (١٣٦٤ هـ= ١٩٤٥م) وهو كتاب في النقد الأسلوبي، قصره الزيات على بيان السمات المثلى للأسلوب العربي..

ولكن أعظم أثر أدبي للزيات هو مجموعة مقالاته التي كان يفتتح بها كل عدد من أعداد

رسالته. وهذه المقالات التي كانت تطالع القراء كل أسبوع في صدر كل عدد من "الرسالة"، قد جُمعت في مجلدات أربعة، كما أنَّ الرسالة التي استمرت أكثر من عشرين عاماً قد ضمَّت في أربعين مجلداً.

وللزيات علاوة على هذه الأجزاء الأربعة التي تضم مقالاته الافتتاحية للرسالة مقالات أخرى نشرها في غير الرسالة بعد إغلاقها، وهذه المجموعة من المقالات قد جمعت في مجلد خامس بعنوان "في ضوء الرسالة"، وتأتي أهمية مقالات الزيات من كونها تمثل أغزر كتاباته، كما تمثل إسهامه الواضح في

النهوض بفن المقال أولاً، ثم تحدد وجهته النثرية وطريقته الفنية ثانياً، أما وجهته النثرية، فهي الوجهة الأسلوبية، التي اتجه إليها قبله المنفلوطي، ثم اتجه إليها معه طه حسين والرافعي، وهي الوجهة التي تقابل الوجهة الفكرية، التي اتجه إليها أولاً لطفي السيد، ثم أصَّلها من بعده العقاد وهيكل والمازني.

ولم يقصر جهوده على التأليف وكتابة المقالات الأدبية والنقدية، بل كان له دور في الترجمة، فترجم من اللغة الفرنسية إلى العربية "آلام فرتر" لجوته سنة (١٣٣٩هـ= ١٩٢٠م)

ورواية "روفائيل" للأديب الفرنسي لامرتين، وذلك في أثناء إقامته بفرنسا سنة (١٣٤٤هـ= ١٩٢٥م).

وقد عالج الزيات في أدبه كثيرًا من الموضوعات السياسية والاجتماعية، فهاجم الإقطاع في مصر، ونقد الحكام والوزراء، وربط بين الدين والتضامن الاجتماعي، وحارب المجالس الوطنية المزيّفة، وقاوم المحتل، وعبّأ الشعب لمقاومته، ورسم سبل الخلاص منه.. يقول الزيات: "إن اللغة التي يفهمها طغام الاستعمار جعل الله حروفها من حديد، وكلماتها من نار، فدعوا الشعب يا أولياء أمره يعبّر

للعدو عن غضبه بهذه اللغة، وإياكم أن تقيموا السدود في وجه السيل، أو تضعوا القيود في رِجل الأسد، أو تلقوا الماء في فم البركان، فإن غضب الشعوب كغضب الطبيعة، إذا هاج لا يُقْدَع، وإذا وقع لا يُدْفَع، لقد حَمَلنا حتى فدحنا الحمل، وصبرنا حتى مللنا الصبر، والصبر في بعض الأحيان عبادة كصبر أيوب، ولكنه في بعضها الآخر بلادة كصبر الحمار".

وقد شغل بعض المناصب العلمية الشرفية منها: عضويته في مجمع اللغة العربية بمصر، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع العلمي العراقي في بغداد، ولجنة التأليف

والترجمة والنشر بمصر، كما رأس تحرير مجلة الأزهر في الخمسينيات.

وقد ظفر الزيات بتقدير الدولة فمنحته جائزتها في الأدب سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م عن كتابه " وحي الرسالة " الذي يجمع مقالاته وأبحاثه التي نشرها في مجلة الرسالة في مجالات النقد والأدب والاجتماع والسياسة وتميزت تلك المقالات بأسلوبها الأدبي الرفيع، الذي يعيد إلى الأذهان ما كانت عليه الأساليب العربية القديمة من سمو ونقاء.

ولما عُدل قانون جوائز الدولة، وأصبحت جائزة تقديرية، لا عن كتاب، بل صارت تتويجا

لحياة كاملة، كرمته الدولة مرة أخرى فمنحته سنة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م جائزة الدولة التقديرية في الأدب، كما اختارته عضوا في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

وظل الزيات محل تقدير وموضع اهتمام حتى وفاته في القاهرة في صباح الأربعاء الموافق ١٦ ربيع الأول ١٣٨٨ هـ/١٢ مايو ١٩٦٨ عن عمر ناهز ٨٣ عاما. وقد نقل جثمانه إلى قرية كفر دميرة ودفن فيها.

على أن حلم الزيات الذى لم يتحقق طيلة حياته، وأدركه الموت قبل تحقيقه، أبصر النور

العام الماضي فقط، بعد نحو ٥٣ عاما من وفاته، فقد ظل الأديب الراحل يتمنى أن يكتب سيرته الذاتية في حياته، وشرع في كتابة مقالات كثيرة لتكون بذرة لهذا الكتاب، لكن مؤلف الكتاب د. عبدالرحمن بن حسن قائد تولى هذه المهمة صلةً لرحم الأدب، وبرًّا بتحقيق أمنية الزيات هذه التي ظلَّ يتمنَّاها نحو أربعة عقود، فسماه "ذكرى عهود أشلاء سيرة ذاتية للأديب الكبير حسن الزيات" حررها، ورتبها على عهود حياته، ونظَّمها واعتنى بها كما كان يريد أن يفعل أو كما لعله قد فعل، حتى استوى كتابًا مشرق الوجه، من أجمل ما

تتمنى قراءته في أدب السيرة الذاتية البليغة المعاصرة.

أخيراً، هذا هو "الزيات"، وهذا هو أثره الكبير في ريادة أدبنا الحديث وفي نهضة النثر وفي ازدهار فن المقال، وغني عن البيان أن وجهة الزيات الأسلوبية وطريقته الفنية يمكن أن تقدم أعظم الفائدة إلى كل من يريد أن يصقل قلمه ويحسن كلمه ويسمو بأسلوبه، وأثر الزيات في ذلك كأثر رفاقه من الكتاب الأسلوبيين، الذين لا غنى عن إبداعاتهم للمتأدبين والمحررين والمشتغلين بالكلمة

العربية الجليلة، ومن يريدون أن يبدعوا نثراً فنياً بلغتنا الجميلة.

المراجع:

١-نعمة رحيم العزاوي . أحمد حسن الزيات كاتبًا وناقدًا . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٦م.

٢-نعمات أحمد فؤاد . قمم أدبية . عالم الكتب . القاهرة – ١٩٨٤م.

٣-محمد مهدي علام . المجمعيون في خمسين عامًا . مطبوعات مجمع اللغة العربية . القاهرة . ١٤٠٦ هـ= ١٩٨٦م.

٤-أحمد نمام: أحمد الزيات.. صاحب "الرسالة" (في ذكرى وفاته: ١٦ ربيع الأول ١٣٨٨هـ)، اسلام أون لاين.

٥- ـ محمد القزاز : أحمد حسن الزيات.. «الرسـالة» لا تزال تقرأ، مقال منشور بالأهرام في ٣١ مارس ٢٠٢١.

٦- عبد العزيز بدر القطان:أحمد حسن الزيات.. إمام النثر العربي في العصر الحديث، 25 آذار ٢٠٢١ ١٨:٣٩

د. محمود محمد علي

رئيس قسم الفلسفة وعضو مركز دراسات المستقبل – جامعة أسيوط